

دراسة الأفكار والعاطفة في قصيدة «لوم وعتاب» لأبي فراس الحمداني (تحت ضوء النقد النفسي)

زينه عرفت بور^١، ليلا جديدي^٢

١. أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

٢. طالبة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها بأكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٤/٦؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٥/٢)

خلاصة القول

إنّ الحيس حادثة قد واجهها كثير من الشعراء الأقدمين منهم أبو فراس الحمداني. وهو اشتهر بحبسياته التي كان أكثرها موجهاً إلى سيف الدولة لمعاتبه. وهذه المقالة تقوم بدراسة قصيدة لوم وعتاب وتحليل الأفكار والعواطف فيها، وتبين ملامح شخصية الشاعر، وحالاته النفسية، ومدى تأثره بالسجن، وكلها تُحلل على ضوء النقد النفسي؛ فيستنتج مما جاء فيها أنه كان شاعراً رومنسياً بعيداً عن التملق ومتأثراً بالألام والأحلام معبراً عن الجدل النفسي؛ حيث أثر السجن في نفسية الشاعر وجعله بين الأحاسيس المتناقضة مثل التشاؤم والتفاؤل، وانتابت الشاعر حالات نفسية مختلفة كالإنتماء والشعور بالعجز، والعودة إلى الماضي، والفردانية، والتجاسر وازدواجية الفكر. كما استنتجنا بأن مصدر الأفكار في قصيدة لوم وعتاب هو الغموم والأحزان التي سيطرت على أبي فراس في الأسر وهذه كلها أدت إلى الأحاسيس المتناقضة منها الضعف والقوّة والتشاؤم والتفاؤل. كما يبيّن هذا البحث أنّ غرض الشاعر من العتاب هو استقطاب إلتفات سيف الدولة وترغيبه على الإفتداء بطرق مختلفة منها: استهلال القصيدة بمقدمة غزلية رائعة ومتناسبة مع الغرض، الحوار، نصح الملك وتكريمه، والإشارة إلى خدماته في حفظ كيان حكومة الملك، وخلق المشاهد الحزينة والمؤلة التي تصوّر مدى قسوة الأيام والأصدقاء.

الكلمات الرئيسية

دراسة الأفكار، دراسة العاطفة، النقد النفسي، أبو فراس الحمداني، قصيدة لوم وعتاب.

مقدمة

النقد النفسي يعتبر من الأساليب الهامة التي يستخدمها النقاد لمناقشة أثر فنيّ ما، لاسيما في السنوات الأخيرة اهتمّ الباحثون في تطبيق هذا النوع من النقد على مجالات مختلفة منها الشعر. والشعر مرآة لأفكار الشاعر وأحاسيسه، وبه تُعرف ملامح شخصيته؛ لأنّه يحاول من خلال أشعاره أن يُعبّر عمّا في ضميره. ومن بين الشعراء الأقدمين، يلاحظ أنّ أبا فراس الحمداني يظهر حالاته النفسية في شعره.

وهو أحد الشعراء والفارسين في التاريخ والأدب العربي، وله دور أساسي في إنشاء تاريخ الحمدان بشجاعته وأدبه طوال حياته، إن كان حرّاً وإن كان أسيراً فهو في جميع الأحوال كان منبعاً غنياً للشعر والنفس الإنسانية والأفكار العميقة والشعور الصادق، وهو ذو شأن رفيع في التاريخ بسبب إنتسابه إلى الملوك، وفي الأدب بسبب كثرة أشعاره وعدم التكبسب بها (مرّوة، ١٩٩٠، ص ٣).

لأبي فراس قصائد أنشدها في السجن وقد اشتهرت بالروميات وتعتبر قصيدة لوم وعتاب واحدة منها. والأفكار الإنسانية والسليمة في هذه القصيدة وعذوبة عاطفتها دفعتنا إلى دراستها.

وفي هذا المقال استخرجنا الأفكار الأصلية والفرعية للقصيدة ومصدرها وطريقة عرضها على ترتيب الأبيات وعالجنا الأحاسيس الملتهية عند الشاعر، وكيفية التيامها حتّى تتمكن من دراسة أفكاره وأحاسيسه على ضوء المنهج النفسي؛ حيث تبرز لنا شخصية الشاعر وكيفية تحمل ظروف السجن السيئة وغايته من العتاب. وبهذا الطريق نصل إلى مقدرته في تنسيق الأفكار وإظهار ما في ضميره، ومن خلال ذلك نفهم مدى صبره أمام المصائب.

والجدير بالذكر أنّ «بعض النقاد المصريين لم يقفوا من المنهج النفسي موقفاً واحداً وإنّما كانت بينهم فروق في التطبيق فمنهم من استعان بالمعارف النفسية العامة، ومنهم من استلهم نظريات فرويد وطبق منهجه، ومنهم من استعان بنظريات يونج، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً في الأخذ من علم النفس» (قطوس، ٢٠٠٤، ص ١٠٢).

وكان طه حسين، وابراهيم المازني، وعباس محمود العقاد، ومحمد النويهي، وشوقي ضيف من الذين يستمدون في نقدهم بالمعارف النفسية. «وكان إتيانهم نحو الإستضاءة بروح العلم،

والإستفادة من كل ما يتّصل بالمعارف العلمية، ومن ضمنها علم النفس؛ أحد الروافد المهمة للنقاد الذين قاموا بدراسات نقدية نفسية وقد كان همّ هؤلاء النقاد أن يوسعوا مجال تقديمهم، ويعمّقوه، بالإلتفات إلى معارف العصر، وعلى هدي منها» (قطوس، ٢٠٠٤، ص ١٠٣). وهكذا يمكن للنقاد أن يسبر أعماق العمل الأدبي ويستشف منها نفس الأديب وما يتركه من أثر في نفس المتلقي، وهذه المحاولة تكمل عملية النقد؛ إذ أن الناقد يتناول الفن، وأساس الفن هو الحياة، وأساس الحياة نفس الفنان التي يملأها عاطفة ويثيرها خيالاً (الطاهر، ١٩٧٩، ص ٤٢٣).

ولكن حسب رأي مجموعة من النقاد ومنهم محمد مندور يجب على الناقد عند استخدام علم النفس في دراسة الأثر الأدبي أن يتوخى الحذر من توظيف المصطلحات المعقدة والقوانين الجافة؛ لأن فهم أعماق النفس البشرية شئ، وإقحام مصطلحات علم النفس على العمل الأدبي شيء آخر (مندور، دون تا، ص ٤٠).

وقد بنينا نحن، الدراسة على منهج النقد النفسي بأسلوب وصفي تحليلي، واعتمدنا على المعارف النفسية العامة كما فعل بعض النقاد المصريين ولم نركز على آراء عالم نفساني خاص. وعلى هذا الأساس نحن ندرس القصيدة المختارة من قصائد أبي فراس دراسة نفسية نستكشف من خلالها نفس الشاعر، ومدى تأثيره على نفوس الآخرين دون أن نثقل البحث باستخدام مصطلحات علم النفس المعقدة جداً؛ فنستفيد من علم النفس إستفادةً تخدمنا في فهم نفس الأديب ولا غير.

وأما بالنسبة لخلفية البحث فقد وجدنا كتباً قامت بتحليل بعض قصائد أبي فراس وتحديد الصفات للشاعر من خلال أشعاره منها: الموسوعة الأدبية الميسرة: أبوفراس الحمداني لخليل شرف الدين. عالج المؤلف في هذا الكتاب حياة الشاعر نظراً إلى موضوعات قصائد ديوانه وأساليبه في إنشاد القصيدة بصورة كلية ثم قام بتحليل عدّة قصائد نموذجاً. وأبوفراس الحمداني الشاعر الأمير لمحمد رضا مروّة، وفي هذا الأثر درس الكاتب أيضاً السيرة الذاتية لأبي فراس وأساليبه إنشاده القصائد. ولكن لم تعالج فيهما هذه القصيدة ولم يتم شرح الأفكار والعاطفة الواردة فيها.

وهناك رسالة عنوانها «تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد» أعدّها عامر عبد الله، وقد عالج في هذه الرسالة مضامين مختلفة منها: الأسرة الحمدانية، والسيرة الذاتية لأبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد وشعر السجن عند أبي فراس

الحمداني وأبي المعتمد بن عباد، ودرس دراسة فنية شعر السجن والمعجم اللغوي عندهما وقام بالمقارنة بينهما. والحري بالذكر أن هذه الرسالة لم تعالج قصائد أبي فراس عبر الإتجاه النفسي ولم تستخرج الأفكار الرئيسية للقصائد ولم يكن فيها أي تحليل لقصيدة لوم وعتاب.

وتمت مقالة أخرى تحت عنوان: «تصوير فخر در سروده هاي أبو فراس حمداني» درست صورة الفخر في أشعار أبي فراس وبيئت أنواعه ودوافعه عند الشاعر ومراحلها في ديوانه وموضوعاته. وفي طيات المقالة توجد أبيات يستدل بها الكاتب لتبيين الموضوع ولكن لم تكن أبيات قصيدة لوم وعتاب بينها.

وكما لاحظنا في هذه الدراسات نرى إشارة موجزة إلى مضامين أشعار أبي فراس وعاطفته بصورة عامة، لكننا لم نجد فيها دراسة مستقلة عن قصيدة خاصة، وإنما أكثر الدراسات تتناول جميع القصائد. وأيضاً لا نرى فيها أي تحليل يستند على علم النفس. أما هذه المقالة فقد ركزت على إحدى قصائده وتحاول أن تستخرج الأفكار المحورية من منظار النقد النفسي وتهدف أن تجيب على الأسئلة التالية:

١. ما هي الأفكار في قصيدة اللوم والعتاب وما هو مصدرها؟

٢. كيف برزت عاطفة الشاعر وشخصيته في القصيدة وما قيمتهما؟

٣. ما هي السمات النفسية التي نستشفها من خلال أفكار الشاعر وعواطفه؟

نظراً إلى القصيدة يمكن القول أن الشاعر كان متأثراً بالغربة التي تحيط به في السجن، وعدم ثبوت محبة الأصدقاء عند الشدائد، ومصائب الأسر. كما نرى ان الأفكار المحورية كانت متناقضة مما تدل على الأحاسيس المتناقضة التي تتاب الشاعر حيث تتراوح بين الضعف والقوة، وبين التشاؤم والتفاؤل.. إذن هذا البحث يحاول في تحديد السمات النفسية للشاعر مستمداً من علم النفس؛ حيث «إن موضوع علم النفس هو دراسة النفس الإنسانية، ولذلك فإن باستطاعتنا أن نستغل هذا العلم في دراسة الفن، لأن النفس هي منبع جميع الفنون» (قطوس، ٢٠٠٤، ص ٢١).

حياة الشاعر فيما يتصل بالنص

أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ولد في الموصل سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢م) نشأ تحت رعاية ابن عمه سيف الدولة وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه حتى أنه جعله والياً على منبج وحران (فروخ، ٢٠٠٦، ج ٢، ص ٤٩٥).

«في سنة ٣٣٧ دخل المتنبي بلاط سيف الدولة^١، أراد سيف الدولة بذلك أن يكشف نور أبي فراس في الشعر والحرب. ثم وقع أبوفراس في أسر الروم الشوال من سنة ٣٥١ هـ وبقي فيه إلى رجب ٣٥٥ هـ (٩٦٢-٩٦٦م). ولم يرغب سيف الدولة في اقتدائه إفتداءً خاصاً يعظم من عظماء الروم بل تركه في الأسر حتى فودي بطريقة العامة في مبادلة الأسرى» (فروخ، ٢٠٠٦، ج٢، ص٤٩٥).

ونرى في كتب تاريخ الأدب أن هناك آراء مختلفة حول شخصية أبي فراس وشاعريته؛ فيقول أبو منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:

«هو ابن عم سيف الدولة وابن عم ناصر الدولة كان فرداً دهره وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً ومجداً وبلاغاً وبراعةً وفروسية وشجاعة وشعره مشهور سائر بيّن الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعدوية والفضامة والحلاوة والمتانة ومعه رواء الطبع وسمّة الظرف وعزة الملك ولم تجمع هذه الخلال قلبه إلّا في شعر عبدالله بن المعتز، وأبوفراس يعدّ أشعر منه عند أهل الصنعة ونقده الكلام» (الثعالبي، ١٩٥٦، ج١، ص٤٨).

ورغم أن الشاعر عاش في القرن الرابع والفترة التي كانت الحمدانيون منشغلين بالحرب والغزو والصراع مع الأعداء أطلق عليه عنوان الشاعر الروماني؛ فهو في أسلوبه وموضوعاته كان كلاسيكياً، وفي بعض مواقفه وميزاته النفسية ذا روح رومانية، ومتوغلاً في حالة من الإنفراد وغير متعلق بشيء، ومحاولاً في تغيير الأصول الرائجة والميل إلى الأصول الحديثة ومعبراً عن مآسة الحياة والألم واضطهاده كشعراء المدرسة الرومانية الجديدة وهكذا اتضحت لنا رومانسيته في الشعر العربي القديم قبل أوانها (أنظر: شرف الدين، ٢٠٠٠، صص٦٣-٦٦).

وبصورة كلية تكون لدى أبي فراس الحمداني في جميع أحواله عاطفة خالصة صادقة إنسانية. فيقول البستاني: «كانت حياة أبي فراس حرباً وأسراً، فأجاد الفخر والحماسة وأبدع في روميته، وغلبت على شعره العاطفة لأنه لم يتكلفه تكلفاً وإنما جرى به طبعه الصحيح، وهو في أشدّ حالات التأثر محارباً كان أو أسيراً واستسلامه إلى العاطفة المطلقة

١. هو سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان ولد في ١٧ من ذي الحجة من سنة ٣٠٣ هـ في مدينة الموصل وكان ملكاً أدبياً ومحباً للأدباء والشعراء (أنظر: فروخ، ٢٠٠٦، ج٢، صص٤٨٣-٤٨٥).
٢. «وفي اليوم الأوّل من شهر رجب سنة ٣٥٥ هـ خرج أبوفراس بثلاثة آلاف أسير إلى خرشنة، ووصل إليها سيف الدولة بأسراه فدفع ستمائة ألف دينار رومية، وتمّ الفداء بعد أربع سنوات» (الدويهي، ١٩٩١، ص٩).

جعل في خياله ضيقاً فلم ينفس له مجال التصوير والتزيين فقد كان يصف حالته في الأسر كما يحسها ويشعر بها لا كما تجسّمها وتوسّعها» (البستاني، ١٩٨٩، ج٢، صص ٣٧٥-٣٧٦).

قصيدة «لوم وعتاب»

وقع أبوفراس في السجن مرتين^١، وفي الفترة التي كان أبوفراس مسجوناً عند الروميين، أنشد قصائد كثيرة مشهورة بالروميات. وهي كانت معبرة عن نفسه المعذبة القلقة، وفيها العواطف والأحاسيس الصادقة التي قلّمها نجدها عند غيره من الشعراء، وهو يسجل في الروميات قسوة الأسر ويرسم حوادث مؤلمة تحدث له، ويروي قلقه وانتظاره للخلاص وميله الشديد إلى الحرية. «وهذه كلّها تجربة، صنعت أبا فراس وأمدته بكثير من الأدوات الصافية النقية» (مروة، ١٩٩٠، صص ٨٩-٩٠).

ويبدو أنّ قصيدة «لوم وعتاب» أنشئت في المرة الثانية من الأسر. أمّا بالنسبة إلى سبب إنشاد القصيدة فيمكن القول «إنّ سيف الدولة يصرّ على الفداء بطريقة عادية فيتحدث الشاعر مع ملك الروم ويبدأ بمحاولته السياسية حتّى يوافق الفدية المتعلقة للأسراء المسلمين. فيرسل الشاعر رسالة لسيف الدولة ويخبره عن هذه الفدية لكن لم يصل إليه خبر من جانب ابن عمّه حتّى يرسل إليه الشاعر رسالة ويشكو من غفلته وتأخّره. يغضب الملك على هذا الشكوى ويرسل إلى أبي فراس رسالة لإزدرائه ويمتنع عن إفتدائه. في هذه الحالة يتغلّب اليأس على الشاعر وينشد هذه القصيدة وقلبه فيها طافح بالحنّة» (الزغول، ١٣٨٢، ص ١٠٠).

ومن هنا يتبيّن لنا موضوع القصيدة وهو المعاتبة، فهي موجهة إلى سيف الدولة بسبب عدم إنتباهه إليه. والعتاب يلقي غالباً في أذهاننا معنى سلبياً وبعض الأحيان يرافقه تحقير الملموم ومؤاخذته، فقيل: اللوم كلمة عربية بمعنى عتاب وله مشتقات، منها: لائم، ملموم، مليم، لوم وكل واحد منها له معنى خاص، وكذلك له مترادفات في اللغة العربية، منها: «التعبير، التأنيب»، وفي اللغة الفارسية تأتي مفردات لما يقارب هذا المعنى منها: «سركوفت وسرزنش ونكوهش» (شريف رازي، ١٣٨٧، ص ٨).

١. فأسرّه الأول بمغارة الكحل في سنة ٣٤٨ هـ المسمّى بخرشنة يقال: إنه قعد على ظهر فرسه وضرب جنبه برجله فسقط من أرفع الحصن إلى الفرات واللّه اعلم والمرّة الثانية أسره الروم وبقي في الأسر أربع سنين وله في الأسر أشعار كثيرة (ابن خلكان، ١٣٦٤، ج٢، ص ٥٩).

وكثيراً ما نواجه هذا الموضوع في أشعار الشعراء المسجونين وهو «طلب البقاء على الودّ والمراعاة» وغالباً ما يوجّه إلى الأشخاص الذين لهم صلة مع الشاعر كالحكام والأمراء الذين سجنوه أو الأصدقاء الذين قد تركوه ويعتمد الشاعر في هذا المجال على تذكيرهم بالخدمات والصلات مع الأقرباء والحكام. وأبوفراس الذي يكون موضوع بحثنا، فهو أكثر عتاباً بالنسبة إلى الشعراء المسجونين (أنظر: آباد، ١٣٨٠، صص ٢٣١-٢٣٤) منها:

تَنكَّرَ سَيْفُ الدِّينِ لَمَّا عَتَبْتُهُ وَعَرَّضَ بِي، تَحْتَ الْكَلَامِ وَقَرَّعَا

ويقول أبوفراس «حينما عاتب سيف الدولة غير معاملته لي فأخذ يسيء إلي» فمن هنا يتبين لنا أن غرض الشاعر الحقيقي من إنشاد القصيدة هو إثارة ترحم الملك وترغيبه في الافتداء.

وربما يكون سبب عدم افتداء سيف الدولة، هو المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الشاعر؛ لأنه كان نجماً في الأدب والحرب؛ فطبيعي أن يحاط بالحاسدين والرقباء، ومن المحتمل أنه كان يخاف من قدرته ومنزلته إذن قلل من حبه ومودته بالنسبة إليه.^١

وهذه القصيدة مكوّنة من خمسة وثلاثين بيتاً على البحر الطويل والتي مطلعها هو:

أَبَى غَرْبٌ هَذَا الدَّمْعُ إِلَّا تَسْرَعَا وَمَكُونُ هَذَا الحُبِّ إِلَّا تَضَوُّعَا

وفي بعض الدواوين لم يكن لها عنوانٌ وعرفت بهذا المطلع، وتلعب العاطفة في هذه القصيدة دوراً جوهرياً. وللقصيدة مهمة وهي التأثير في عواطفنا وكسب تعاطفنا مع موقف الشاعر. ومن خلالها يصل الشاعر إلى غايته من إنشاد الشعر وهي تبادل الأحاسيس بينه وبين القارئ.

و«قد جاء في كتاب سلسلة شعراء العرب تعريفٌ عن عاطفته حيث كتبت: شعر أبي فراس شعر يدل بوضوح على شخصية شاعرنا وهو أبي النفس، شجاع، كريم، وطني فالعاطفة، هي ما ينضح من شعره أكثر ما ينضح، وخصوصاً في الروميات هي القصائد التي نظمها في أثناء أسره، والتي تطلعننا فيها العاطفية الجياشة، الإحساس الصادق، التصوير الرقيق والحزن والألم وذلك ما خلد ذكره إلى الأبد» (المركز الثقافي اللبناني، دون تا، ص ٧).

١. هناك أقوال متعددة حول عدم فداء سيف الدولة، قد ذكر صاحب كتاب «ادباء العرب في الأعصر العباسية» أن من أسباب غضب سيف الدولة وعدم فداؤه إلتجاء أبي فراس إلى أهل خراسان وطلب المفاداة منهم (أنظر: البستاني، ١٩٨٩، ج ٢، ص ٢٧٢).

فعلی هذا القول نستنتج أنّ العاطفة جزء رئيسی في روميّات الشاعر لا ينفك عنها بسبب ما أحاط الشاعر به من مشاكل الدهر، ونرى أنّ عاطفته إحساس إنساني عام؛ لأنّها صادرة عن حالات نفسية لم تختصّ بالشاعر فحسب بل تشمل كل قلب إنسان متألم عن حوادث الدهر.

والجدير بالذكر أنّ العاطفة قد غلبت على أبي فراس عندما كان مسجوناً، وهذه العاطفة التي لا تسمح له أن يعترف أنّ من تولّى تربيته يتجنّى عنه ويتأخّر في فدائه؛ إذ هو كان شاعره وفارسه الخالص، إذن نواجه مسألة شعورية نفسية من جانب أبي فراس، وحادثة مفاجئة وموقفاً خطيراً من جانب سيف الدولة، على هذا الأساس روميّاته معبّرة عن تجربة السجن، والبعد عن أهله؛ لذا فهي من أصفى الشعر العربي القديم (أنظر: شرف الدين، ٢٠٠٠، ج٤، صص٣٩-٤٠).

والمهم أنّنا نرى تناقضاً في الحالات النفسية للشاعر في هذه القصيدة فتلاحظ حينما يتحدث عن حبه وعن أسرهِ وعن الإعراض وعدم الوفاء ولوم سيف الدولة، تكون عاطفته مؤلمة ومحركة ومؤثرة في النفوس، وكأنّه فقد أمله وقطع مودّته عن سيف الدولة أمّا حينما يبدأ بنصيحة الملك وتعظيم شأنه، فيظهر صدق عاطفته بالنسبة إلى الملك وتخدم اضطراباته، وكأنّه يترك لوم الملك في النهاية ويسعى لإثارة ترحمه ولكن يحاول أن يبتعد عن الكذب والرتاء ودائماً يذكر الحقيقة دون إطالة الكلام وتوشيحهِ.

هذا وكان الشاعر في هذه القصيدة شاعراً عاطفياً، ومصدر هذه العاطفة هي الظروف التي عاش فيها منها الألم والقسوة والبكاء، ولكن رغم كل ذلك أنّه ذو نفسية قوية وأمير وفارس قاتل، ولكن العواطف والأحاسيس قد سيطرت عليه في مطلع القصيدة، وحينما يتحدث عن حبه لسيف الدولة يحاول أن يعبر عن مدى عذابه من الهجران، ثم يتكلم عن المشيب ويبين لنا حالة من اليأس. هذا التباطؤ من جانب سيف الدولة قد أوقع في قلبه الخوف والحزن وقطع الأمل، ثم نرى بكل صدق يتذكر الأسباب التي أوقعته في هذه الورطة؛ منها البقاء في السجن سنتين، ثم الجفاء من جانب الأقرباء، ثم الغفلة والنسيان من جانب الملك وإستماعه للواشي، ولا يهّمه لو تجعل هذه الأقوال سيف الدولة مصراً على موقفه منه؟ لأنه ليس شاعراً متملقاً ولا متكسباً، بل هو أمير متوغل في الأحاسيس ولا يريد أن يحط من شأنه بأقوال كاذبة ومتصنعة، فالعاطفة الصافية تملأ القصيدة. وفي النهاية حينما ينصح سيف الدولة ويتكلّم عمّا فعله الملك في حقه، يكثر من إعلام صداقته ومحبته إليه وهذه علامة تدلّ على عذوبة العاطفة فيه.

وحسب الأفكار المطروحة في هذه القصيدة قسّمنا القصيدة إلى خمسة أقسام؛ ندرس الأفكار والعاطفة المطروحة فيها تحت ضوء النقد النفسي:

أ. دراسة نفسية للمقطع الأول من القصيدة

القسم الأول منها يشتمل على ستة أبيات يقول فيها الشاعر:

- | | |
|---|--|
| ١. أْبَى غَرْبٌ هَذَا الدَّمْعُ إلَّا تَسْرَعَا | وَمَكُونُ هَذَا الحُبِّ إلَّا تَضَوُّعَا |
| ٢. وَكُنْتُ أَرَى أَنِّي مَعَ الحَزْمِ وَاجِدٌ | إِذَا شِئْتُ لِي مَمْضِي وَإِنْ شِئْتُ مَرْجِعَا |
| ٣. فَلَمَّا اسْتَمَرَ الحُبُّ فِي غُلُوَائِهِ | رَعَيْتُ مَعَ المِضْيَاعَةِ الحُبَّ مَا رَعَى |
| ٤. فَحُزْنِي حُزْنُ الهَائِمِينَ مَبْرَحًا | وَسِرِّي سِرُّ العَاشِقِينَ مُضِيَعَا |
| ٥. خَلِيلِي، لِمَ لَأ تَبْكِيَانِي صَبَابَةً | أَبْدَلْتُمَا بِالأَجْرَعِ الفَرْدِ أَجْرَعَا؟ |
| ٦. عَلَيَّ، لِمَنْ ضُنَّتْ عَلَيَّ جَفُونُهُ | غَوَارِبُ دَمْعٍ، يَشْمَلُ الحَيَّ أَجْمَعَا! |

(الدويهي، ١٩٩١، ص ٢٠٨)

وعندما نتمعن النظر في هذه الأبيات نرى أنّ الفكر الرئيسي هو وصف الحب والبكاء والإستبكاء. وفي الواقع هذه المقدمة الغزلية تتكوّن من أفكار جزئية منها:

- انكشاف سرّ الشاعر أي سرّ العشق؛
- كثرة الإشتياق لصيانة الحب؛
- إظهار الحزن والضعف في طريق الحب؛
- البكاء والإستبكاء.

ولكن قبل أن نبدأ بتحليل الأفكار لابدّ أن نقول إنّ المقطع الأوّل يبدأ بمقدمة غزلية يصف الشاعر فيها بكائه ويطلب البكاء من الآخرين كالشعراء المتقدمين الجاهليين. فهنا أيضاً نشاهد الصلة التامة بين هذه المقدمة والمقاطع الأخرى للقصيدة التي سنذكرها فيما بعد. ومصدر الفكرة هي إنفعالاته النفسية الملتهبة المنبعثة من قلب الشاعر بسبب الحزن.

حسب ما جاء في المصادر أنّه لم ينشد المقدمة الغزلية في الروميات إلّا في أربعة قصائد، واحدة منها هي القصيدة المذكورة (أنظر: الزغول، ١٣٨٢، ص ٩٨). وربما هذه المقدمة وسيلة لإبراز مودّته إلى الملك وتعبير عن حالاته المؤلمة بسبب فراقه وغفلته عن الشاعر. فهو لا يستطيع أن يتحمّل لهيب النار في قلبه، إذن يكفّ عنه الثبات والمقاومة وهذا ما يؤدي إلى البكاء والجزع وإظهار الحسرة. وهو يعبر عن عاطفته المشتعلة كالشعراء الرومنسيين؛ ويعتقد

شرف الدين أنه شاعر رومنسي؛ رغم أن قوالبه الشعرية وموضوعاته تكون مثل الشعر العربي الكلاسيكي المعروف؛ فهو يكون ذا ملامح رومنسية يعيش حالة من الوحدة، والانتماء، والرغبة في تغيير المعايير السائدة في المجتمع (شرف الدين، ٢٠٠٠، ص ٦٢-٦٣).

أما الألفاظ فهي توافق أحاسيس الشاعر حيث تُصوّر أحزانه وآلامه الناتجة عن جفاء سيف الدولة، وتترك تأثيراً بالغاً على نفس القارئ، منها غرب الدموع، حزن الهائمين، سر العاشقين، صنّ الجفون عليه و... لأن الشاعر يحاول في إثارة ترحم ابن عمه وهذا المقطع يحقق ما أرادته قائلة. على كل حال غزله رائعٌ وبعيدٌ عن التصنع والتكلف، ولغته بسيطة لاتجهد القارئ في سبيل فهمها، إذن تأثيره في النفوس أكثر وأقوى من القصائد التي تتكاثر فيها المفردات الصعبة وهذه ميزة تشمل جميع قصائده الغزلية.

والجدير بالذكر أن أبا فراس قد تفوّق في الغزل، وأحد الأوصاف التي تلازم غزليات أبي فراس هي الرقة؛ لأنه يعرف الأحاسيس البشرية ويعبر عنها بسهولة وموقفه في الغزل موقف الحزن والكآبة؛ إذن يلجأ إلى البكاء ويبرز شوقه إلى الحبيب (أنظر: مروة، ١٩٩٠، صص ٧٠-٧٤).

وكما قلنا أن أبا فراس يريد من الآخرين البكاء والمشاركة في أحزانه:

خَيْلِي، لِمَ لَأ تَبْكِيَانِي صَبَابَةً أأَبْدَلْتُمَا بِالْأَجْرَعِ الْفَرْدِ أَجْرَعَا؟

إذن هو حسب تعبير علماء النفس يقع في حالة الانتماء^١ فهو يريد من خلّانه المساعدة، والمشاركة في همومه، وذرف الدموع على حالته المحزنة حتى يقللوا شيئاً من قلقه وحزنه.

ب. دراسة نفسية للمقطع الثاني من القصيدة

وفي المقطع الثاني يصف الشاعر حالاته النفسية في السجن:

- | | |
|---|---|
| ٧. وَهَبْتُ شَبَابِي، وَالشَّبَابُ مَضْنَةٌ | لَأَبْلَجَ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّي، أُرْوَعَا! |
| ٨. أَيْتُ، مَعْنَى، مِنْ مَخَافَةِ عَتِيهِ | وَأَصْبِحُ مُحْزُونًا، وَأُمْسِي مُرْوَعَا! |
| ٩. فَلَمَّا مَضَى عَصْرُ الشَّيْبِيَّةِ، كُلُّهُ | وَفَارَقْتَنِي شَرْحُ الشَّبَابِ مُودَعَا |
| ١٠. تَطَلَّبْتُ بَيْنَ الْهَجْرِ وَالْعَتَبِ فُرْجَةً | فَحَاوَلْتُ أَمْرًا، لَأ يُرَامَ، مُمْنَعَا |
| ١١. فَلَوْ أَنَّ أَسْرِي بَيْنَ عَيْشِ نَعْمَتِهِ | حَمَلْتُ لِدَاكِ الشَّهْدِ ذَا السُّمِّ مُنْقَعَا |

١. Affiliation، «الانتماء هو التقارب الحميمي بما في ذلك المزاملة والمرافقة. والدلالة دائماً إيجابية؛

والصحة يلازمها التعاون والرفقة» (ربير، ٢٠٠٨، ص ١٦).

١٢. وَلَكِنْ أَصَابَ الْجُرْحُ جِسْمًا مُجْرَحًا
وَصَادَفَ هَذَا الصَّدْعُ قَلْبًا مُصَدَّعًا
١٣. وَصِرْتُ إِذَا مَا رُمْتُ فِي الْخَيْرِ لَذَّةً
تَتَّبَعْتُهَا بَيْنَ الْهُمُومِ، تَتَّبَعُهَا
١٤. وَهَذَا أَنَا قَدْ حَلَّيْتُ الزَّمَانَ مُقَارِقِي
وَتَوَجَّعَنِي بِالشَّيْبِ تَاجًا مُرَصَّعًا
١٥. فَلَوْ أَنَّنِي مَكُنْتُ مِمَّا أُرِيدُهُ
مِنْ الْعَيْشِ يَوْمًا، لَمْ يَجِدْ فِي مَوْضِعًا
١٦. أَمَا لَيْلَةٌ تَمُضِي وَلَا بَعْضُ لَيْلَةٍ!
أَسْرُبُ بِهَا هَذَا الْفُؤَادَ الْمَفْجَعًا؟
١٧. أَمَا صَاحِبُ فَرْدٍ يَدُومُ وَفَاؤُهُ!
فِيصْفِي لِمَنْ أَصْفِي، وَيَرَعِي لِمَنْ رَعِي؟
١٨. أَفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيقٌ أَوْدُهُ
إِذَا مَا تَفَرَّقْنَا حَفِظْتُ وَضَيْعًا؟

(الدويهي، ١٩٩١، صص ٢٠٨-٢٠٩)

والفكرة الرئيسية في هذه الأبيات هو الحديث عن أيام شباب الشاعر وجفاء أصدقائه في أيام الحزن وهذه الفكرة تنقسم إلى أفكار جزئية منها:

- الحسرة بسبب مضي أيام الشباب؛
- إظهار الحزن؛
- الخوف من عتاب سيف الدولة؛
- تخلي أصدقائه عنه في أيام الحزن.

نلاحظ أنّ الأفكار في هذا المقطع ناتجة عن شعور الشاعر بالغرابة والحزن والشعور بالشيخوخة. فرغم أنّ هذه القصيدة أنشئت في أيام شباب الشاعر وكان عمره خمسة وثلاثين عاماً لكنّه يشعر بالشيخوخة. إنّ الشاعر يريد أن يببالغ في وصف حالاته ويستقطب انتباه المخاطب وترحمه، وبهذا السبب أشار إلى المشيب.

«هناك مسألة وهي مصدر الغربة وسببه؛ للغربة أبعاد ومظاهر ذكرها علماء النفس والاجتماع...؛ منها الشعور بالعجز^١». فيقول أبو فراس في المقطع المذكور:

١. «إنّ أبعاد ومظاهر الغربة قد أجملت في خمسة مظاهر أساسية هي: العجز، واللامعنى، واللامعيارية، والعزلة الاجتماعية، والاعتراب عن الذات» (أنظر: الجبوري، ٢٠٠٨، ص ١٨).

٢. Powerlessness، فهو شعور الفرد بأنّه لا حول ولا قوّة ولا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية التي يواجهها ويعجز عن السيطرة على تصرفاته وأفعاله ورغباته، ولا يستطيع أن يقدر مصيره، ومن ثمّ يعجز عن تحقيق ذاته أو يشعر بحالة من الإستسلام والخنوع والعجز وفقدان القدرة هو توقّع الفرد بأنّه لا يملك القدرة على التحكم وممارسة الضبط، لأنّ الأشياء حوله تسيطر عليها ظروف خارجية أقوى منه، ويتولّد لديه شعور بالعجز والإحباط وخيبة الأمل في إمكانية التغيير» (الجبوري، ٢٠٠٨، ص ١٨).

تَطَلَّبْتُ بَيْنَ الْهَجْرِ وَالْعَتَبِ فُرْجَةً فَحَاوَلْتُ أَمْرًا لَّا يُرَامُ مُمَنَّعًا

فهو يتطلب بين الوحدة الناتجة عن هجر الأحبة وبين العتاب الذي يوجهه إليهم، فرصة لإصلاح الأمور، لكنه يرى نفسه يسعى لأمر ممتنع لا يتحقق، فهكذا نلاحظ عجزه وعدم تمكنه من تغيير الأوضاع.

والمسألة الأخرى هي أنّ هناك فرص كثيرة في السجن للتأمل والتفكير، وعادةً بسبب الجو السائد فيه يتأمل المسجون في ماضيه ومستقبله، ويتأسّف على أعماله، كما يفعل أبو فراس فهو يسير في أيامه الماضية ثم ينظر إلى الحاضر ويرى أنّ شبابه مضى في إرضاء الملك والخوف من لومه وفي خدمة الأصدقاء، ولكن من دون جدوى فلم يحصل شيئاً من مداراته للملك وهذه المحاولات لا تؤدي له إلى نتيجة إلّا إعراض الملك وتفرّق الأحباب عن حوله. وهذا نوع من العودة^١ إلى الماضي.

فعلى هذا الأساس حينما الشاعر يتكلم عن مضيّ الشباب، والخوف من العتاب، وجفاء الأصدقاء يريد به تقليل أحزانه ومواساة نفسه. إنّ الباعث على هذه الأفكار هي ظروف خاصة تفرض نفسها على الشاعر وهذه لا تختص بأبي فراس فحسب بل نراها عند أكثر الشعراء المسجونين؛ فيشير الشعراء السياسيون عادةً في السجن إلى عدم الوفاء وتقض العهد؛ لأنّ أكثر الأصدقاء والأقرباء يعرضون عنهم ويتركونهم وحيدين في الأزمات ويظهرون عداوتهم إزاءهم. بهذا السبب يواجه الأصدقاء والأقرباء شكوى المسجونين وإكثار الحديث عن مفارقتهم وإقلال الحديث عن محبتهم لأنّ عدد الأصدقاء المخلصين لهم قليل (آباد، ١٣٨٠، ص ٢٠٤)، ويعتبر أبو فراس من هؤلاء الشعراء الذين ينشدون القصائد في هذا الباب؛ فهو اكتسب تجارب كثيرة في السجن وعرف الطبيعة المتلونة للإنسان وبرز له عدم ثباته، إذن نرى في أشعاره أنّه يعتقد بعدم الإعتماد على الأصدقاء لأنّ طبيعة الدنيا تجعل الإنسان خادعاً وخائناً (أنظر: الدويهي، ١٩٩١، صص ٢٠٦-٢٠٧).

إضافة على هذا نرى آهات الحسرة متصاعدة من قلب الشاعر؛ لأنّه يرى نفسه بريئاً لا

١. Regression، في علم النفس «هناك حالة هامة، هي الرجوع إلى الماضي، وهذه الحالة في المباحث السايكولوجية تسمى بالعودة وهو رجوع مؤقت إلى حالة نفسية سابقة لا تحصل في الذهن فحسب، بل يعيش فيها الشخص مرّة أخرى. إنّ حالة العودة إلى الماضي يمكن أن تكون عودة إلى تجربة مؤلمة أو سعيدة، وهذه عملية دفاعية تبعد الأفكار عن المشاكل الجارية» (تالسين، ١٣٨٧، ص ٤٤).

ذنب له غير مستحق للجفاء والوحدة. كل هذه الأحاسيس تجعله يبكي ويحزن ويشعر بالشيخوخة ويشكو من عدم وفاء الأصدقاء. وينشأ نجواه مع النفس عن لهيب النار الذي يضرم في قلبه ثم يشتد ليكون دواءً لإزالة الهموم التي تجعله وحيداً.

وأيضاً نشاهد شيئاً من التشاؤم في الأبيات التي تشير إلى فسوة الأصدقاء وتناسيهم إياه؛

حيث يجعلهم جميعاً ممن لا يستمر وفاؤه:

أما لَيْلَةٌ تَمْضِي وَلَمَّا بَعْضُ لَيْلَةٍ!
أما صَاحِبٌ فَردُّ يَدُومٌ وَفَإَوْه!
أفِي كُلِّ دَارٍ لِي صَدِيقٌ أَوْه
أَسْرُ بِهَا هَذَا الْفُوَادَ الْمَفْجَعَا؟
فِيصْفِي لِمَنْ أَصْفَى، وَيَرَعَى لِمَنْ رَعَى؟
إِذَا مَا تَفَرَّقْنَا حَفِظْتُ وَضَيَّعَا؟

فهو لا يجد صديقاً وانياً يرافقه وفيه بعده.

والتصوير الذي يصوره الشاعر في ذهن القارئ هو تصوير مليء بالغموم وكأن القارئ ينغمس في فضاء كئيب ويشاركه في أحزانه ويفهم مدى القسوة التي تعرض لها الشاعر، كما نرى أن الألفاظ توافق المعنى تماماً.

ج. دراسة نفسية للمقطع الثالث من القصيدة

وفي المقطع الثالث يتحدث عن أيام الأسر ومفارقة الأصدقاء وقطع الأمل من سيف الدولة:

١٩. أَقَمْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ عَامِينَ لِمَا أَرَى
٢٠. إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومِ خُطَّةً
٢١. وَإِنْ أَوْجَعْتَنِي مِنْ أَعَادِي شِيْمَةً
٢٢. وَلَوْ قَدْ رَجَوْتُ اللَّهَ لِمَا شَاءَ غَيْرُهُ
٢٣. لَقَدْ قَتَبُوا بَعْدِي مِنَ الْقَطْرِ بِالنَّدَى
٢٤. وَمَا مَرَّ إِنْسَانٌ فَأَخْلَفَ مِثْلَهُ؛
مِنَ النَّاسِ مَحْزُونًا وَلَمَّا مَتَّصَنَعَا
تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعُرَبِ أَرْبَعًا
لَقَيْتُ مِنَ الْأَحْبَابِ أَدْهَى وَأَوْجَعَا
رَجَعْتُ إِلَى أَعْلَى وَأَمَلْتُ أَوْسَعَا
وَمَنْ لَمْ يَجِدِ إِلَّا الْقُنُوعَ تَقَنَعَا
وَلَكِنْ يُزَجِّي النَّاسُ أَمْرًا مَوْقَعَا

(الدويهي، ١٩٩١، ص ٢٠٩)

وكما نرى أن الأفكار الجزئية في هذا المقطع هي عبارة عن:

- الحديث عن السجن؛
- عدم اهتمام الأصدقاء والأقرباء به في أيام الأسر؛

١. إن أم أبي فراس كانت رومية وأباه عربي، لذلك يقول: «أخوالي الروم» (الدويهي، ١٩٩١، ص ٧).

- الوجد بسبب عدم وفائهم؛
- الندم بسبب عدم اتكاله على الله؛
- الحديث عن منزلته الرفيعة وفائدته للقوم والفخر بنفسه.

يتكلم الشاعر بعد الحديث عن حالاته النفسية عن مدة الأسر، وهذا يلقي في ذهن القارئ المشاق التي تحملها أبو فراس؛ لأنه كان أميراً فارساً ودائماً في الرحلة وكان يشارك في الحروب ويقاوم، أما الآن فحُبس كسمة في قارورة لا مفر منها. إذن نرى أن مصدر هذه الأفكار هو الشعور بالغربة حيث أصيب من جانب الأقارب بصدمة شديدة أثرت في روحه وجعلتها مجروحة، أي نسيانهم وغفلتهم كانت أشد من معاملة الأعداء. وفي هذا القسم نواجه معنى حكماً من جانب الشاعر وهي الإستعانة بالله والإشارة إلى أن الله معنا في أيام الحزن ولكن الأقرباء أكثرهم يصاحبون المرء عند تمتعه بالذات، ويتفرقون من حوله فور أن تمضي هذه الأيام وعندما تحل المصائب.

ثم يشير الشاعر إلى أنه أنجز خدمات كثيرة للآخرين ولكنهم أهملوا في تكريمه، وهذه الفكرة تأتي أهميتها من الأحداث التاريخية التي توالى بعد ذلك فالتاريخ أثبت أن العظماء خاملو الذكر ولكن من جانب إنساني إذا عمل شخص أعمالاً جديرة لا بد أن نشكره ونكرمه، وهذه من القيم الإنسانية التي لم يلتزم بها أهل أبي فراس، فتعلل سيف الدولة في خلاصه بثبت صحة هذه الفكرة.

كما إعتبر الشاعر نفسه بمنزلة المطر لقومه ونرى في هذا التشبيه نوعاً من الفخر بنفسه وإشارة إلى جوده وكرمه. وهذا الفن الشعري يلازم روميات أبي فراس في كثير من الأحيان. لقد افتخر أبو فراس بقبيلته وقومه ونفسه وسبب هذا الفخر أولاً كان أنفة قبيلة آل حمدان ويجسد هذا في الأشعار الذي أنشدها قبل الإسارة وثانياً تذكير دوره المثمر في القبيلة وهذا يمثل كثيراً فيما أنشد في الأسر لإظهار المقدرة أمام قومه الذي كانوا ينكرون شأنه ومقامه (حريري وصديقي وملايبي، ١٣٩٠، ص ٩٠).

ونرى في هذه القصيدة أن الشاعر يرى نفسه أفضل وأحسن من الآخرين، ولا يوجد بديل له عند سيف الدولة. فالفخر عند أبي فراس يوجي إلى أنه كان يميل إلى الفردانية. وحينما ندقق في

١. Individualism، الفردانية في مصطلح علم النفس «تتاول شرح سلوك الفرد تجاه البيئة» (شايان

مهر، ١٣٧٧، ص ٣٩٧) وهي نوع من الإعجاب والمباهاة بالنفس، وتعتبر حالة معقدة.

أوصاف أبي فراس وسجيته وأعماله تتبين لنا قيمة هذا الفخر وصحته وليس هذا الفخر كذباً ولا وسيلة لخداعة الآخرين ولا نرجسية بل هو دليل على واقع حياة الشاعر ومنزلته الرفيعة الحقيقية.

د. دراسة نفسية للمقطع الرابع من القصيدة

وفي المقطع التالي يتحدث الشاعر عن أيام السجن وغفلة سيف الدولة عنه، ويتكلم مباشرة عن تعامل الملك معه ثم يبدأ بنصيحة الملك حيث يقول:

٢٥. تَتَكَرَّسِيفُ الدِّينَ لَمَّا عَتَبْتُهُ وَعَرَضَ بِي، تَحْتَ الكَلَامِ وَقَرَعَا
 ٢٦. فَقُولًا لَهُ: مِنْ أَصْدَقِ الوُدِّ أَنَّنِي جَعَلْتِكَ مِمَّا رَأَيْتِي الدَّهْرَ مَفْزَعَا
 ٢٧. وَلَوْ أَنَّنِي أَكْتَنُّتُهُ فِي جَوَانِحِي لِأورِقَ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَفَرَعَا
 ٢٨. فَلَا تَفْتَرِرِ بِالنَّاسِ! مَا كُلُّ مَنْ تَرَى أُخُوكَ إِذَا أَوْضَعْتَ فِي الأَمْرِ أَوْضَعَا!
 ٢٩. وَلَا تَتَّقَلَّدْ مَا يَرُوعُكَ حَلِيهُ تَقَلَّدْ إِذَا حَارَبْتَ مَا كَانَ أَقْطَعَا!
 ٣٠. وَلَا تَقْبَلَنَّ القَوْلَ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ! سَأَرْضِيكَ مَرَأِي لستُ أَرْضِيكَ مَسْمَعَا

(الدويهي، ١٩٩١، صص ٢٠٩-٢١٠)

الفكرة المحورية في هذا المقطع نصيحة سيف الدولة وتذكيره بالأعمال التي مارسها لأجله، والأفكار الجزئية المطروحة فيه هي:

- عتاب سيف الدولة؛
- تقديم النصيحة لسيف الدولة؛
- تحذيره عن الإستماع إلى أقوال الوشاة؛
- عدم الإعتماد على الأصدقاء والأقرباء.

وفي هذا المقطع يميّز الشاعر بين سيف الدولة وناقضي العهد أي الأقرباء؛ لأنّ ودّه لا يزال باقياً في قلب الشاعر فهو لا يقطع حبل المحبة بعد، فهذا الحب دفعه إلى نصيحة الملك حتى لا يواجه المشاكل في الأيام الآتية من جانب الوشاة ومن يحيطه من المتظاهرين، ويبرز شفقتة للملك معبراً عن أحاسيسه بكل رقة وعطوفة؛ لأنّه كان بمنزلة أب له كفه منذ صغره، فالإبن لا يضيق صدره بأبيه حتى إذا جفا عليه أبوه.

وهنا يبرز لنا الأسلوب المتداول عند الشاعر لإفادة المعنى وهو الحوار؛ إذ كان الحوار عند الشاعر وسيلةً للتعبير عما يشعره من الوحدة والغربة سواء مع سيف الدولة الحمداني أم في أسره عند الروم. إنّه تناول الحوار بصيغته وأشكاله المختلفة، من بين هذه الصيغ نرى أنّه إستخدم صيغة

الطلب كالأمر والنهي والنداء والإستفهام والفائدة التي تعود إلينا منها هي تشبيه المتلقي والطلب المباشر من الطرف المقابل (أنظر: محمود يونس، ٢٠٠٦، ص ٢٣٣). فاستعمال صيغ النهي مثل: لا تغتر، لا تتقلد ولا تقبلن، وأيضاً النداء مثل: يا صادق الود يؤيد هذا الأمر، حيث يقلل الخطاب من الإحساس بالغربة والوحدة؛ إذ يستدعي الخطاب صورة ذهنية من المخاطب بين جدران السجن.

في الحقيقة يريد أبو فراس باستعمال صيغ النهي أن يسوق سيف الدولة إلى الدقة في اختيار العمال والأصدقاء، أن يوجه الملك إلى التمييز بين من يكون مخادعاً ومن يكون صادقاً، حتى يعرف من يوقع العداوة بينه وأبي فراس ومن يعينه في الشدة، فدوام كل حكومة يحتاج إلى مناصرين يكونون صادقين في أعمالهم وأقوالهم كما يحتاج سيف الدولة إلى هؤلاء الأشخاص لاستمرار حكمه. فنصيحة أبي فراس قد تنبع من مودته بالنسبة إلى الملك رغم إعراضه عنه؛ فربما هذا الأمر يؤثر في سيف الدولة ويغير موقفه إزاء الشاعر الأسير؛ فإذن الغرض من النهي هنا هو الدعاء.

ومن جانب آخر إذا اعتبرنا الغرض من النهي هنا، توبيخاً يتبين لنا أنه يسعى لأن يدافع عن حقوقه بطرق مختلفة. فهو يستحق محبة سيف الدولة، إذن بالشجاعة في الكلام - ومن دون الإنتهاك بحرمته - يظهر له عدم مقدرته في معرفة الأقرباء. وفي الحقيقة إحدى الأوصاف الشخصية التي تظهر لنا في هذا المقطع من القصيدة، هي التجاسر^١، وهذه الميزة هي من ملازمات شخصية أبي فراس لأنه فارس وشجاع ويجب أن يكون فيه الجرأة.

هـ. دراسة نفسية للمقطع الخامس من القصيدة

وفي المقطع الأخير يمدح سيف الدولة ويذكر النعم التي قدمها له سابقاً وهو يقول:

- | | |
|--|---|
| ٣١. فَلِلَّهِ إِحْسَانٌ عَلَيَّ وَنِعْمَةٌ | وَلِلَّهِ صُنْعٌ قَدْ كَفَّانِي النَّصْنَعَا |
| ٣٢. أَرَانِي طَرِيقَ الْمَكْرُمَاتِ، كَمَا رَأَى | عَلَيَّ، وَأَسْمَانِي عَلَى كُلِّ مَنْ سَعَى |
| ٣٣. فَإِنْ يَكُ بَطْءٌ مَرَّةً فَلَطَّالِمَا | تَعَجَّلَ نَحْوِي بِالْجَمِيلِ وَأَسْرَعَا |
| ٣٤. وَإِنْ يَجْفُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ فَإِنِّي | لَأَشْكُرُهُ النَّعْمَى الَّتِي كَانَ أَوْدَعَا |
| ٣٥. وَإِنْ يَسْتَجِدُّ النَّاسُ بَعْدِي فَلَا يَزَلْ | بِذَلِكَ الْبَدِيلِ، الْمُسْتَجِدَّ، مُمْتَعَا! |

(الدويهي، ١٩٩١، ص ٢١٠)

١. Assertiveness، «التجاسر إحدى الأوصاف السلوكية التي تكون من مميزاتها التعامل الإجتماعي

الإيجابي للدفاع عن الحقانية أو الوصول إلى الحق» (برونو، ١٣٨٤، ص ١٠٥).

والفكرة المحورية في هذا القسم الرجاء إلى إفتداء سيف الدولة ويتفرّع منها الأفكار الجزئية التالية:

- الإشارة إلى إحسان الله له؛
- الإشارة إلى إحسان سيف الدولة له؛
- الأمل في التفات الملك إلى الشاعر؛
- الإشارة إلى ما أعطاه الملك فيما قبل؛
- طلب الخير لسيف الدولة.

إذن في بداية المقطع بعد التلميح إلى إحسان الله له يعود الشاعر ليمدح سيف الدولة بعد أن لامه في المقطع السابق، فنراه يقول:

أَرَانِي طَرِيقَ الْمَكْرَمَاتِ، كَمَا رَأَى عَلِيٌّ وَأَسْمَانِي عَلَى كُلِّ مَنْ سَعَى

وكما رأينا أن الشاعر يحدثنا عن قسوة سيف الدولة حيناً وعن مكارمه وجوده حيناً آخر؛ فلا بد لنا أن نبرّر مصدر هذه التناقضات؛ وهو العقل اللاوعي؛ حيث يطرد المرء الفكر الذي لا يعجبه وينزعج عنه إلى العقل اللاوعي، لكن هذه الأفكار لا تتخلّى عنه وتظهر أحياناً وهذا ما يسمّى بـ«الزلات السلوكية»^٢ (شايگان فر. ١٣٨٤، ص ١٠٥).

إذن هذه الأفكار المتناقضة تسيطر على الشاعر بسبب الجو السائد في السجن والبعد عن أهله فهو لا يستطيع أن يتغلب على ما يعذّبه، وليس بإمكانه نسيان قسوة الأقارب.

وفي هذا المقطع يشعر الشاعر بالهدوء فتقلّ اضطراباته النفسية لأنه يشير إلى إحسان سيف الدولة ولهذا استعمل من صيغة التعجب لتعظيم شأنه وأعماله.

ربّما يكون قصد الشاعر من ذكر إحسان سيف الدولة ونعمته هو طلب الودّ عنه، كما قلنا سابقاً إنّ الغرض من العتاب هنا طلب بقاء الملك على الودّ، فحاول في هذا الأمر دون أن يلجأ إلى التصنّع والرتاء.

حينما يقوم بتذكير ما فعل ابن عمه في حقه في الأيام التي كان عاملاً عنده، يريد مواساة نفسه وهدوئه والتقليل من اضطرابه وأيضاً يبرز إجلاله لسيف الدولة. وهكذا يمثل

1. Unselfconscious

2. Freudianslip

هذا المقطع تناؤل أبي فراس فهو يظهر في هذه الأبيات الخمسة أملة في إلتفات الملك إليه، من بينها البيت التالي:

فَلِلَّهِ إِحْسَانٌ عَلَيَّ وَنِعْمَةٌ وَلِلَّهِ صُنْعٌ قَدْ كَفَانِي التَّصَنُّعًا

حيث يشير إلى إحسان الله له، والتناؤل هو نزعة داخل الفرد للتوقع العام لحدوث الأشياء الإيجابية أكثر من حدوث الأشياء السلبية. المتفائلون في مواجهة المشاكل يبحثون عن الأهداف السامية ومن خلال توظيف آليات التأقلم المؤثرة، يستخدمون قدراتهم الذاتية حتى يتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم (ارجمند نيا وخانجاني ومحمودي؛ نقلاً عن: شي ير وكارور وبريجز، ١٣٩١، ص ٥٠).

هذا وكان سيف الدولة بمنزلة أب لأبي فراس لأنه رباه وكفله؛ بهذا السبب نرى عند الأمير إحساساً غامضاً أي الشعور بالحب والوفاء والإشتياق فيرسل رسالته إلى سيف الدولة ويعتبر فيها نفسه أحد ندمائه وأقرب الناس إليه، إذن لا قدرة له على إقناع إعراض الملك، فيبرر دائماً عدم التفاته ويعترف بإحسان سيف الدولة إليه فيما سبق:

فَإِنْ يَكُ بَطُءٌ مَرَّةً فَلَطَّالِمًا تَعَجَّلَ نَحْوِي بِالْجَمِيلِ وَأَسْرَعًا

(أنظر: شرف الدين، ج ٤، ٢٠٠٠، صص ٧٦-٧٨)

وهكذا يبرر جفائه ونسيانه أولاً للحصول على السكنية في قلبه، وثانياً للحصول الإطمئنان عند الملك، إنه لم ينس أطفاه، وثالثاً هو يبقي وافياً ولم ينكر موهبات الملك. ربما بهذا الطريق يهيئ الأرضية لرجوع سيف الدولة إليه وفي البيت الأخير قد دعاه حتى يثبت أنه لا يفرغ بسبب مقامه بل يتمنى أن يفوق الملك بواسطة من يكون بديلاً منه.

وهكذا تتبين في هذه القصيدة أوصاف الشاعر منها: فروسيته وشجاعته وفضله وكرمه. وبهذا السبب اشتهر بالشاعر والفارس، وهاتان الصفتان تأتيان معاً في وصفه، فيشير الشاعر في القصيدة المذكورة إلى فروسيته ويشير تلويحاً إلى ما أنجزه في الدفاع عن ثغور ملك الملك، وقد ظهرت شخصيته قوية حيث لا يلجأ إلى التملق للخلاص، بل أولاً بدأ بوصف الظروف التي يعيش فيها، ثانياً يعبر عن الأحاسيس المؤلمة التي تسيطر عليه وتجعله محزوناً، ثالثاً يتحدث عن مسببي هذا الأسر وهم الوشاة ومعاندوه، ورابعاً يكشف عما يكون في باطنه من المحبة إلى الملك بوضوح وصدق، ويشير أخيراً إلى أملة بسيف الدولة في أن يفتح له طريق الخلاص.

وعندما ندقق في القصيدة تبرز لنا الحالات النفسية للشاعر؛ فيمكننا القول أنه أبتلي بازدواجية الفكر^١. والملفت للنظر في هذا المجال هو أنه متردد في صور مختلفة بين الضعف والقوة، بين الخوف والجرأة، بين التشاؤم والتفاؤل، وبين لوم سيف الدولة ومدحه.

وقد تبين لنا أن الغرض من إنشاد القصيدة هي إثارة ترحم الملك وترغيبه في الفداء والعتاب لطلب المودة، أما بالنسبة إلى حالاته النفسية فيمكن القول أنه يستفيد من آلية الدفاع عن النفس^٢ وإن استعمال آلية الدفاع عن النفس ليست سمة للأمراض النفسية، لأنه تلعب دوراً جوهرياً في إرتياح النفس للإنسان في كثير من الأحيان. في الحقيقة تعتبر آلية الدفاع عن النفس نوعاً من المعاملة الحسنة بشرط عدم الإفراط في استعمالها (بور أفكاري، ١٣٧٣، ص ٣٧٢). وإن الأشخاص يستفيدون منها لمحافظة أنفسهم أمام الأفكار المؤلمة، كما لاحظنا أن أبا فراس الحمداني وظّف بعض الآليات الدفاعية منها الإنتماء والفردانية في مواجهة الظروف القاسية التي كان يكابدها في السجن.

النتيجة

١. إن مصدر الأفكار في قصيدة لوم وعتاب هو الغموم والأحزان التي سيطرت على أبي فراس في الأسر وهذه كلها أدت إلى الأحاسيس المتناقضة منها الضعف والقوة والتشاؤم والتفاؤل.
٢. من الأغراض الشعرية عند أبي فراس هو العتاب، وهنا يكون بمعنى طلب البقاء على الودّ والمراعاة فلم يقصد بها معناه السلبي أي لوم الملموم لإستصغاره وتقليل شأنه.
٣. إن الأفكار قد جاءت في ترتيب منطقي، ولكل منها معنى إنساني وتعبّر عمّا يواجهه الإنسان بعض الأحيان كمفارقة الأصدقاء وعدم وفائهم عند المشاكل، وعدم إلتفاتهم إلى من يتمتع بمكانة رفيعة، والتوكّل إلى الله، ومصدر الأفكار هو قلب متألم فهو يعبر عن تجربته الذاتية بصورة مؤثرة؛ حيث يتأثر القارئ بها.

١. Dysgraphie، وازدواجية الفكر هي «وجود الميل والإحساس المفرد أو شعوران متناقضان تجاه شخص أو شيء في آن واحد. وهذا الأمر يمكن أن يكون في العقل الواعي أو العقل اللاوعي» (جمعي از اساتيد روانشناسي، ١٣٦٩، ص ٢٦٢).

٤. كان الفخر من فنونه التي لم ينفك عنها، فهو يفتخر دوماً بنفسه؛ لأنّه ذو شخصية قوية ويكون أميراً فارساً لا يحبّ الإذلال، إذن يفتخر بنفسه تلميحاً. ومن العوامل التي تسبب الفخر في الشاعر هي الفردانية أي الإعجاب والمباهاة بالنفس.
٥. كان الحوار عند الشاعر وسيلة لتقليل آلامه ونسيان غربته وانفراده، فيستفيد منه بأساليب مختلفة وصيغ متنوعة، ومن بين هذه الصيغ نرى أنه استخدم صيغة الطلب كالأمر والنهي والنداء والاستفهام؛ وباستعمال هذه الصيغ يخاطب سيف الدولة أكثر من الآخرين.
٦. إنّ المعاني والألفاظ والتراكيب توافق غرض الشاعر لأن الغرض من إنشاد القصيدة هي إثارة ترحم الملك وترغيبه على الفداء، والتراكيب قد جاءت مطابقة له. وأيضاً تسيطر عليه الحالات الشعورية التي تطابق الغرض وهي إنتماؤه ورومنسيته وشعوره بالغربة.
٧. يعتبر الشاعر في هذه القصيدة شاعراً عاطفياً؛ لأنّه يعبر عن شعوره بالألم والبكاء بكل صدق دون أي تملق وتصنع، إذن تكون عاطفته جياشة، ومؤلمة ومؤثرة في النفوس.
٨. من بداية القصيدة إلى نهايتها تتغلّب على الشاعر حالات نفسية مختلفة منها: الإنتماء والفردانية والتفاؤل، والتجاسر وازدواجية الفكر؛ فالإنتماء فيه يؤدي إلى دعوة الناس للمشاركة في أحزانه، والفردانية تسبّب الفخر والمباهاة، والتفاؤل ينبت في قلبه بذرة الأمل إلى الخلاص، والتجاسر يهيئ الأرضية لنصيحة سيف الدولة وتشجيعه على الإفتداء، وازدواجية الفكر تسبّب ظهور أحاسيس متناقضة إزاء سيف الدولة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. آباد، مرضيه (١٣٨٠ش). حبسيه سرايي در ادب عربي از آغاز تا عصر حاضر. مشهد: دانشگاه فردوسي.
٢. ابن خلّكان، أبو العباس (١٣٦٤ش). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، ج ٢، ط ٢، قم: منشورات الشريف الرضي.
٣. أرجمند نيا، علي اكبر؛ خانجاني، مهدي؛ محمودي، مريم (١٣٩١ش). اميد واميدواري. طهران: دفتر مطالعات فرهنگي وبرنامج ريزي اجتماعي وزارت علوم تحقيقات وفناوري.
٤. البستاني، بطرس (١٩٨٩م). أدباء العرب في الأعصر العباسية. ج ٢. بيروت: دار نظير عبود.
٥. برونو، فرانك (١٣٨٤ش). فرهنگ توصيفي روانشناسي. ترجمة فرزانه طاهري؛ مهشيد ياسائي، ط ٣، طهران: ناهيد.
٦. پور افكاري، نصرت الله (١٣٧٣ش). فرهنگ جامع روانشناسي- روانپزشكي وزمينههاي وابسته. ج ١، طهران: فرهنگ معاصر.
٧. تالسين، لوئيس (١٣٨٧ش). نظريه نقد ادبي معاصر. ترجمة مازيار حسين زاده؛ فاطمه حسيني، طهران: نگاه امروز؛ حكايه قلم نوين.
٨. ثعالبی، ابو منصور (١٩٥٦م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. ج ١، ط ٢، القاهرة: مطبعة السعادة.
٩. الجبوري، يحيى (٢٠٠٨م). الحنين والغربة في الشعر العربي. عمان: دار مجدلاوي.
١٠. جمعي از اساتيد روانشناسي (١٣٦٩ش). دائرة المعارف روانشناسي. ترجمة واقتباس عنايت الله شكيبا پور. ط ٤، طهران: فروغي.
١١. حريچي، فيروز؛ صدقي، حامد؛ ملايي، علي اكبر (١٣٩٠ش). تصوير فخر در سرودههاي ابوفراس حمداني. مجله انجمن ايراني زبان وادبيات عربي، العدد ١٨.
١٢. الدويهي، خليل (١٩٩١م). ديوان أبي فراس الحمداني. بيروت: دار الكتاب العربي.
١٣. ريبير، آرثر أس؛ ريبير، ايملي (٢٠٠٨م). المعجم النفسي الطبي. ترجمة عبد العلي جسماني؛ عمار الجسماني. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.

١٤. الزغول، محمد أحمد (١٣٨٢ش). أغراض حبسيه در أدبيات عربي وفارسي با تكيه بر حبسيات ابوفراس حمداني ومسعود سعد سلمان. نشره نامه پارسي، السنة الثامنة، العدد ٤.
١٥. شايمان مهر، عليرضا (١٣٧٧ش). دائرة المعارف تطبيقي علوم اجتماعي. ج ١، طهران: انتشارات كيهان.
١٦. شايمان فر، حميدرضا (١٣٨٤ش). نقد ادبي، ط ٢، طهران: دستان.
١٧. شرف الدين، خليل (٢٠٠٠م). الموسوعة الأدبية الميسرة: أبوفراس الحمداني. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
١٨. شريف رازي، ح (١٣٨٧ش). نقش ملامت در زندگي. قم: برگزيده.
١٩. الطاهر، علي جواد (١٩٧٩م). مقدمة في النقد الأدبي. [دون مك]: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٠. فروخ، عمر (٢٠٠٦م). تاريخ الأدب العربي. ج ٢، ط ٧. بيروت: دار العلم للملايين.
٢١. قطوس، بسام (٢٠٠٤م). المنهج النفسي في النقد الحديث- النقاد المصريون نموذجاً. الكويت: جامعة الكويت.
٢٢. محمود يونس، ساهرة (٢٠٠٦م). الحوار في شعر أبي فراس الحمداني (دراسة تحليلية). مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ٣، العدد ٣.
٢٣. المركز الثقافي اللبناني (دون تا). سلسلة شعراء العرب ديوان أبي فراس الحمداني. بيروت: المركز الثقافي اللبناني.
٢٤. مروّة، محمد رضا (١٩٩٠م). أبوفراس الحمداني الشاعر الأمير. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٥. مندور، محمد (دون تا). في الأدب والنقد؛ الفجالة. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر.